المحاضرة الحادية عشر

القَومِيَّةُ وَالعُنصُرِيَّةُ

عناصر المحاضرة:
تمهيد.
مفهوم القومية والعنصرية.
تاريخ القومية والعنصرية.
تعريف العصبية.
أنواع العصبية.
موقف الإسلام من عصبية القومية والعنصرية.

مقدمة:

- **تعد القومية والعنصرية من أهم النزعات الاجتماعية التي ربطت الإنسان منذ القدم بجماعته، بحيث اعتز بالانتماء إليها، وحمايتها، والذب عنها بنفسه وماله، وأخلص الولاء لها، والخضوع لمبادئها وتقاليدها دون قيد أو شرط، وتبعها تبعية مطلقة دون إعمال لعقل أو قيمة من القيم.**

- **وهي وإن كانت ربطت الإنسان في المجتمعات بعشيرته أو قبيلته أو قومه، أو من يلتقي معهم على مصالح معينة، إلا أنها من أشد النزعات التي أثارت الكراهية والبغضاء بين الناس.**

- **وأهدرت حقوق الإنسان، وصادرت كرامته وحريته، وحرمته من العلاقات الإنسانية الكريمة القائمة على المساواة بين الناس في القيمة الإنسانية، والعدل بينهم، والتعاون بينهم فيما يحقق الخير للجميع، ويُمَكِّن من حياة آمنة مطمئنة.**

مفهوم القومية والعنصرية:

((1)) في اللغة:

(أ) القومية: من القوم، وهم الجماعة من الناس، تجمعهم جامعة يقومون لها، وقوم الرجل عصبته، وهم أقاربه من أبيه، أو قومه الذين يتعصبون له، وينصرونه.

(ب) العنصرية: من العنصر، وهو الأصل والحسب، والعصبية تعني تعصب المرء أو الجماعة للجنس.

((2)) في الاصطلاح: هي شعور قوي لدى جماعة بالانتماء إلى آصرة القوم أو العنصر، والاعتزاز بها، ينشأ عنه ولاء وارتباط يتحكم في عقول أفراد هذه الجماعة وسلوكهم؛ بحيث يصبحوا يداً واحدةً على من سواهم، ينتصرون لبعضهم، ويسالمون عليها غيرهم ويعادونهم، ويبنون عليها آراءهم وأفكارهم ومواقفهم ونظام حياتهم.

تاريخ القومية والعنصرية:

عرفت المجتمعات البشرية ألوانا من السلوكيات التي احتقرت الإنسان وامتهنته، نشأت عن عقائد ضالة، ومذاهب فاسدة، وأنظمة اجتماعية منحرفة.

((1)) كان اليونان يقسمون المجتمع إلى طبقات اجتماعية متفاوتة في الحقوق المدنية، يونان، وهم : سكان مدينتي أثينا وإسبارطة، ولهم جميع الحقوق المدنية، وموالي ليس لهم حق في كثير من الحقوق، ورقيق محرومون من كل الحقوق، كما أن قدماء اليونان كانوا يعتقدون أنهم وحدهم كاملو الإنسانية، زودوا بقوى العقل والإرادة على حين خلقت الشعوب الأخرى ناقصة الإنسانية.

((2)) واعتز الرومان بأرومتهم، ورأوا أنهم أرقى أهل الأرض عنصراً، وأنهم أعظمهم مدنية وثقافة، وكانوا يلقبون الشعوب الخاضعة لهم بالبرابرة، وكان مبدؤهم يقوم على تقديس الشعب الروماني، وأن الشعوب الأخرى لا تستحق أن تحكم نفسها بنفسها، وحسبها خدمة العنصر الروماني الرفيع.

((3)) واعتقد الأكاسرة ملوك فارس أنه يجري في عروقهم دم إلهي، وكانت الرعية تنظر إليهم على أنهم آلهة، يعتقدون أن في طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً، كما كان المجتمع الفارسي طبقياً يصنف الناس على أساس النسب والحرف، بين كل طبقة وأخرى هوة واسعة، لا تصل بينهما صلة، وعلى كل فرد أن يقنع بمركزه الذي منحه إياه نسبه، فليس له أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلق لها، وكان أهل فارس يقدسون قوميتهم، ويرون لها فضلاً على سائر الأجناس والأمم.

((4)) خضع المجتمع الهندي آلاف السنين لنظام اجتماعي لم يعرف التاريخ أشد قسوة منه على الإنسان، يرتكز على قاعدة المحافظة على السلالة الآرية ونجابتها، مكوناً تفاوتاً طبقياً بين أفراد المجتمع الواحد متنوعاً إلى أربع طبقات هي:

البراهمة: وهم طبقة الكهنة ورجال الدين، ويعتقد أنهم خلقوا من فم الإله.

الكشتر: وهم الجند ورجال الحرب، ويعتقد أنهم خلقوا من ساعد الإله.

الويش: وهم أهل الصناعة والتجارة والزراعة، ويعتقد أنهم خلقوا من فخذ الإله.

الشودر: وهم الطبقة الدنيا، يعملون في خدمة الطبقات السابقة، ويعتقد أنهم خلقوا من قدم الإله.

وقد منح هذا النظام الذي وضعته الكتب الدينية الهندوسية طبقة البراهمة امتيازات عجيبة، فقد جعلتهم صفوة الآلهة، وملوك الخلق، وسادة الأرض، في حين أهانت طبقة الشودر (المنبوذين)

((5)) وزعم اليهود أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة، وأن ما عداهم من البشر ليسوا إلا كالحيوانات، وإنما خلقوا على صفتهم حتى لا يتوحشوا من خدمتهم.

وجاءت الحركة الصهيونية لتؤكد نظرة اليهود إلى غيرهم من الأمم، وهي نظرة ازدراء وكراهية، وتتضح هذه النظرة في استعلائهم عنصرياً، والزراية بغيرهم ممن يسمونهم: (الجوييم) أي: الأميين.

جاء في البروتوكول الحادي عشر: (إن عقل الأمم – لكونه ذا طبيعة بهيمية محضة – غير قادر على تحليل أي شيء، فضلاً عن التكهن بما قد يؤدي عليه امتداد حال من الأحوال إذا وضع في ضوء معين؛ وهذا الاختلاف التام في العقلية بيننا وبين الأميين، وهو الذي يمكن أن يرينا بسهولة آية اختيارنا من عند الله، وأننا ذوو طبيعة ممتازة فوق الطبيعة البشرية حين تقارن بالعقل الفطري البهيمي عند الأميين).

((6)) كما أن الكتاب المقدس في النصرانية رسم صورة عريضة لحدود طاعة ما يعرف بالعبيد لسادتهم واستجلاب رضاهم؛ مما يوحي بنظرته للنظام الطبقي المتبع آنذاك، ويدل كذلك على أن النصرانية اصطبغت بصبغة الرومان.

((7)) وعرف العرب في الجاهلية فكرة القومية باسم العصبية؛ فكانت القبيلة أو العشيرة هي الوحدة السياسية والاجتماعية التي يعيش أفرادها في إطارها، وتحت ظلها، ويخلصون الولاء لها، ويخضعون لتقاليدها، يعبر عن ذلك منطق الشاعر الجاهلي:

لا يَسأَلُونَ أخاهُم حِينَ يَندبُهُم لِلنَّائِبات على ما قالَ بُرهانا

((8)) وفي أوروبا لم تكتمل القومية إلا في القرن الثامن عشر الميلادي بعد أن فقدت الكنيسة الكاثولكية نفوذها على إثر قيام حركة مارتن لوثر الإصلاحية وظهور الكنيسة البروتستانتية المتحررة؛ حيث تشكلت فكرة القومية على أساس المصالح القومية دون اعتبار للدين في تشريعها السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

- وظهرت اليوم آثار العنصرية في استعلاء الجنس الأبيض على الأسود في صورة مختفية وراء السياسات العنصرية وأساليب التعامل المهينة والاتفاقيات المجحفة في حق اقتصاد الشعوب الملونة والسوداء.

- وفي حالة التخلف العلمي والفقر والإهمال وانتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة التي لا تزال تعاني منها هذه الشعوب، وتذوق مرارتها على مرأى ومسمع العالم بأسره.

- في ضوء هذه التصورات والفلسفات المتراكمة على مر العصور تطلع الإنسان إلى منهج يعالج هذه المشكلة التي عانى فيها من ظلم أخيه الإنسان واستعلائه عليه وحرمانه من حقوقه الأساسية، ومصادرته لحريته، واستغلاله لثرواته دون وجه حق أو لأسباب مكتسبة.

تعريف العصبية:

((1)) في اللغة: من عَصِب القوم به عصباً؛ أي: اجتمعوا حوله، وتعني: المحاماة والمدافعة عمن يلزمك أمره، وتلزمه لغرض.

((2)) في الاصطلاح: هي رابطة استعلاء تقوم على التعصب الطبقي والعنصري والتمايز بين الناس على أساس اللون أو النسب أو الثروة أو الجاه، تؤدي إلى إهدار كرامة المخالف والزراية به وسلبه حقوقه الإنسانية أو بعضها.

وبهذا المعنى تكون الطبقية والعنصرية من أنواع العصبية التي عرفتها المجتمعات البشرية.

أنواع العصبية:

((1)) عصبية اللون: تقوم على أساس افتراض وجود دم أزرق نبيل، وآخر دم أحمر وضيع، وعلى تقسيم الناس إلى أقسام حسب لون بشرتهم بيضاء كانت أو سوداء، يستغل بها الأبيض أخاه الأسود، ويمتهنه للون بشرته. يقول (شارل دي مونتيسكيو) في كتابه روح القوانين : (وما شعوب إفريقية إلا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس، ذات أنوف فطساء إلى درجة يكاد من المستحيل أن ترثي لها، وحاشا لله ذي الحكمة البالغة أن يكون قد أودع روحاً – أو على الأخص روحاً طيبة – في جسد حالك السواد).

ولا ريب أنه عندما يسود في مجتمع ما منطق احتقار الإنسان على أساس لونه، ويتم تصنيف أفراده في طبقات متفاوتة بسببه فإن ذلك يدل على جهل هذا المجتمع وشقائه.

((2)) عصبية الطبقة: تنشأ روابط اجتماعية بين الناس كرابطة الأسرة، أو رابطة المهنة أو رابطة السكنى بين أهل الحي أو القرية.

وتقوم روابط أخرى على أساس التقارب في المراتب والمنازل؛ فقد كانت قريش قبل الإسلام تفرض لنفسها مرتبة خاصة وحقوقاً وتقاليد محددة خلاف سائر العرب.

وفي المجتمع الفارسي تفاوتت الطبقات على اعتبار النسب والحرف، كما تمايزت في الهند الطبقات الأربع في الوظائف، وانقسم المجتمع الروماني إلى طبقات هي: طبقة النبلاء وطبقة رجال الدين وطبقة العامة الذين هم غالب الشعب.

((3)) عصبية القوم والعنصر: تقوم على تفضيل قومية على غيرها، وعنصر من العناصر البشرية على آخر، فيُزعَم أن هذه القومية أرقى، وأن هذا العنصر أزكى وأنقى، وقد عبر (أرسطو) عن النزعة العنصرية التي حكمت المجتمع اليوناني.

ويلتقي الفكر الاستعماري مع النزعة العنصرية التي تزعم تفوق الجنس الآري في الصفات العقلية والروحية، وأنه النبع الأوحد للحضارة، وإلى هذا الجنس ينحدر المفكرون والمخترعون والعلماء الذين حملوا مشعل الحضارة.

وقد صدرت مؤلفات لدعم هذه الفكرة:

منها كتاب ((عدم المساواة بين الأجناس)) للكونت جوزيف جوبينو.

وكتاب ((تاريخ اللغات السامية)) لأرنست رنان: الذي قرر فيه أن الجنس السامي دون الجنس الآري.

موقف الإسلام من عصبية القومية والعنصرية:

- لا يرفض الإسلام العصبية القائمة على الحق، والانتصار للعدل والفضيلة، كما أنه لا يعترض على الانتماء إلى القبيلة لإثبات نسب، أو إلى قومية معينة كوحدة اجتماعية، يشاركها مشاعرها، ويذب عن حقوقها ومكارمها.

- **ولا ينفي الإسلام كذلك حق الإنسان في حب وطنه وعشيرته والحنين إليهم مرتقياً به من التعلق بالأرض والموقع الجغرافي لذاتهما إلى القيمة والمكانة والحرمة؛ وقارناً لها بالمبادئ والقيم التي يؤمن بها من يقيم على هذا الوطن.**
- **لقد أظهر الرسولﷺ هذا المعنى في خطابه لمكة، وهو مهاجر منها: ((ما أطيبك من بلد، وأحبك إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك)).**

- إن هذا المعنى يجلي موقف الفطرة في محبتهﷺ لبلده مكة، معللاً هجرته منه رغم تعلقه به ومحبته له بإخراج كفار قريش له، ومنعهم إياه من إقامة مبادئ الإسلام فيه.

- ولا يلغي الإسلام فضل قومية بعينها؛ لكنه يضع منها ما كان سائداً في المجتمعات من الفخر بالأنساب والأحساب، والتعالي بسببها على الناس وأعراقهم.

- كما لا يتنكر الإسلام الأنساب، فالناس معادن مختلفة كما قال الرسولﷺ : ((تجدون الناس معادن؛ فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)).

- ولكنه يحرم التفاخر بها، والتباهي بمكارم الآباء؛ فيجعل من كان تقياً غير نسيب أكرم عنده من نسيب فاجر؛ إذ يقول اللهﷻ: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير).

- ويقول الرسولﷺ: ((ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه)).

أنواع العصبية في الاسلام:

إن العصبية في نظر الإسلام نوعان:

الأولى عصبية ممدوحة، وهي محاماة الإنسان عن قومه إذا كانوا على حق، وهي مقصود الرسولﷺ في قوله: ((خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم))، وقولهﷺ: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)). قال: يا رسول الله! هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالما؟ قال: ((تأخذ فوق يديه)).

والأخرى عصبية مذمومة، وهي التي كانت معروفة في الجاهلية، تقوم على الفخر بالأنساب، وعَدِّ مآثر الآباء، وقد وصفها القرآن الكريم بحمية الجاهلية في قولهﷻ : (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية).

وبين الرسولﷺ سبب ذمها، وهو محاماة الإنسان عن قومه مع أنهم على ظلم؛ فعن واثلة بن الأسقعﷺ، قال: قلت: يا رسول الله ما العصبية؟ قال: ((أن تعين قومك على الظلم)).

- وقد أبطل الإسلام هذه العصبية لما فيها من تكبر على الناس، واستطالة عليهم بنخوة القبيلة والقرابة، وأقام مكانها عصبية الانتصار للحق والعدل والإخوة في الدين، جاعلاً معيار التفاضل بين الناس العمل الصالح والعلم النافع.

قال الرسولﷺ: ((إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب)).

- فصارت المكانة المشروعة مشاعة يرتقي إليها كل من كان أهلاً لها من أهل العلم والعمل مهما كان نسبه وعنصره ولونه، ومهما كانت طبقته؛ لذا كانت المساواة بين الأجناس من مآثر الإسلام التي امتاز بها.

- يقول المؤرخ الفيلسوف (Toynbee) في كتابه: ((الحضارة في الامتحان)): إن القضاء على الفوارق السلالية والعصبيات الجنسية والدموية من أعظم مآثر الإسلام ومفاخره، أما العصر الحالي فإن الشعوب الناطقة باللغة الانجليزية قد حققت بعض النجاح في ربط الشعوب بعضها ببعض، وعادت على العالم الإنساني بخير ورحمة، ولكن الحقيقة الراهنة التي يجب الاعتراف بها أنها أخفقت في القضاء على العواطف السلالية والجنسية.

المُحاضَرَةُ الثَّانِيَةَ عَشرَةَ
اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ
وِعاءُ التَّعلِيمِ وَالثَّقافَةِ

عَناصِرُ المُحاضَرَةِ:
((1)) تمهيد. ((2)) بداية دراسة اللغة العربية.
((3)) أهمية اللغة العربية. ((4)) خصائص اللغة العربية.
((5)) تميز العربية عن بقية اللغات. ((6)) وظائف اللغة العربية.
((7)) اللغة العربية ..الموقع الاستراتيجي في التدافع الحضاري. ((8)) اختراق الهوية ...وصدمة العولمة.
((9)) نحو أداء أفضل للغة العربية. ((10)) الأسس العلمية لبناء منهج تعلم اللغة العربية.
((11)) كيف نحافظ على اللغة العربية بين الطلاب. ((12)) الطلبة العرب ودورهم في الحفاظ على الثقافة العربية.

تَمهيد:

حَبَا المولىﷻ اللغة العربية بوضعية قلَّما نجدها في اللغات الأخرى؛ فإلى جانب أنها لغة فطرية يتواصل أصحابها بالاكتساب والتعلم فهي لغة كتابهﷻ الذي حفظه في اللوح المحفوظ إلى يوم الدين.

ويتضح ذلك في اختلافها عن تلك اللغات المنتشرة المشهورة كالإنجليزية والفرنسية والألمانية.

وهذا الاختلاف يتجسد في ثلاثة جوانب:

أوَّلها: أن العربية لها امتداد تاريخي ليس لهذه اللغات؛ بمعنى أنها استمرت منذ الأدب الجاهلي حتى الآن دون أن تتعرض لتغير ((نوعي)) كاللغات الأخرى، ولا يجد العربي المعاصر عناءً في الاستجابة لأدب العرب القدماء.

ثانياً: أن هذه اللغة ترتبط ارتباطاً عضوياً بالإسلام، يبدأ هذا الارتباط بالقرآن الكريم ثم يمتد في الحديث الشريف، والتفسير، والفقه والتاريخ وغير ذلك من جوانب الحياة الإسلامية، فالإسلام يكون النواة الثقافية للعربية الفصيحة، ونحن حين نطلق مصطلح ((العربية الفصيحة)) إنما نطلقها بهذا المعنى، وهذا من أهم الجوانب التي لابد من حسابها عند النظر في تعليمها.

ثالثها: أن هذه العربية الفصيحة لها تراث هائل في الدرس اللغوي لا نعرف له مثيلاً أيضاً في اللغات الأخرى؛ فمنذ القرن الثاني الهجري والعلماء يتلاحقون واحداً في إثر واحد يدرسون جانباً من العربية، في الأصوات، وفي الصرف، وفي النحو، وفي المعجم ، فتكوَّنَ لدينا هذا التراث الضخم في وصف العربية.

بِدايَةُ دِراسَةِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ:

وعلى الرغم من الامتداد التاريخي للعربية منذ العصر الجاهلي فإنه لم يتفق حتى الآن بين علماء اللغة حول البداية الفعلية لدراستها والاهتمام بها في النواحي البحثية والعلمية.
ويرى البعض أن الاهتمام بدراسة العربية بدأ مبكراً، ربما في عصر الصحابةﷺ والتابعين.
وتؤرخ كثير من الروايات ذلك الاهتمام بالتابعي أبي الأسود الدؤلي تلميذ الإمام عليﷺ؛ حيث تشير كثير من الروايات إلى أن الإمام وَجَّهَ نَظَرَ أبي الأسود إلى الاهتمام ببعض مسائل العربية.
وأياً ما كان الأمر فإن أبا الأسود يُعَدُّ بحقٍّ مؤسس الدراسة اللغوية عند العرب.

أَهَمِّيَّةُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ:

وقد اعتبر كثير من العلماء أن العروبة هي اللسان وأن الكلام بغيرها لغير حاجة يخشى أن يورث النفاق وأبرز هؤلاء:

((1)) ابن تيمية الذي يقول: إن اللسان العربي شعار الإسلام وأهله، واللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميزون.

((2)) كره الشافعي لمن يعرف العربية أن يتكلم بغيرها، أو يتكلم بها خالطاً لها بالعجمية، وكان يؤكد على أن كل من يقدر على تعلم العربية فإنه ينبغي عليه أن يتعلمها لأنها اللسان الأَوْلَى بأن يكون مرغوباً فيه.

كما اعترف كثير من المستشرقين بأهمية اللغة العربية وتميزها ومن أبرز هؤلاء:

((1)) يقول العلامة كارل بروكلمان: بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أي لغة أخرى من لغات الدنيا، والمسلمين جميعاً مؤمنون بأن العربية وحدها هي اللسان الذي أحل لهم أن يتعلموه في صلواتهم.
وبهذا اكتسبت العربية من زمن طويل مكانة رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى التي تنطق بها شعوب إسلامية.

((2)) يقول المستشرق الفرنسي لوي ماسينيون المعروف بكتاباته المغرضة غير المنصفة عن الإسلام والمسلمين: ((اللغة العربية لغة وعي، ولغة شهادة، وينبغي إنقاذها سليمة بأي ثمن للتأثير في اللغة الدولية المستقبلية، واللغة العربية بوجه خاص هي شهادة دولية يرجع تاريخها إلى ثلاثة عشر قرناً)).
كما أن أهميتها تنبع من كونها ذات قدرة كبيرة على تذليل الصعاب وقوة واضحة في مجابهة الحياة وأنها تتمتع بقدرة فائقة على استيعاب كل جديد من العلم والحكمة والفلسفة وأنواع المعرفة الأخرى، وهي تتمتع كذلك برسوخ في الأصول وحيوية في الفروع.

خَصائِصُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ:

إن اللغة العربية لغة غنية ودقيقة تمتاز بوفرة هائلة في الصيغ وهذا ناتج عن طبيعتها التي تختلف عن أية لغة أخرى وخصوصاً وأنها من أقوى اللغات السامية الأخرى من حيث التطورُ شكلاً ومضموناً صوتاً وكتابة وملائمة لتطورات الواقع ويتضح ذلك من خلال الخصائص الآتية:

((1)) أصوات اللغة العربية تستغرق كل جهاز النطق عند الإنسان وتخرج من مخارج مختلفة تبدأ بما بين الشفتين في نطق حروف كالباء والميم والفاء، وتنتهي بجوف الناطق في نطق حروف المد: الألف والواو والياء التي تخرج من الصدر والحلق إلى خارج الفم.

((2)) اللغة العربية صنعت قانونها بنفسها: فإذا تكلم ذو بيان فإنك تطرب لسماعها، وتفهم بيانها، وترتاح لتبيانها.

((3)) اللغة العربية لغة مرنة: ويظهر ذلك من طواعية الألفاظ للدلالة على المعاني وطواعية العربية تتمثل أكثر ما تتمثل في ظاهرتي الترادف والاشتقاق بصفة خاصة، وفي قدرتها على استيعاب المُوَلَّد والمُعَرَّب والدخيل بصفة عامة.

((4)) قدرة العربية على الوفاء بمتطلبات العصر: ينبغي أن ننظر إلى اللغة العربية على أنها إحدى اللغات العظمى في العالم اليوم فقد استوعبت التراث العربي والإسلامي، كما استوعبت ما نقل إليها من تراث الأمم والشعوب ذات الحضارات الضاربة في القدم كالفارسية، واليونانية، والرومانية، والمصرية وغيرها.

((5)) اللغة العربية بين التعبير الأدبي والتعبير العلمي: اللغة العربية لغة مرنة طيعة. فيها الأسلوب الأدبي الإنساني ذو الدلالة الواسعة، وفيها الأسلوب العلمي ذو الدلالة المحدودة الصارمة.

((6)) اللغة العربية لغة كاملة: إن الكثير من الباحثين اللغويين يرى أنه لا توجد لغة جامدة أو قاصرة أو ((بدائية))؛ وإنما يوجد قوم ((بدائيون)) أو جامدون، فاللغة أية لغة – فضلاً عن أن تكون العربية - قادرة دائماً على التطور والنمو واستنباط المفردات والتراكيب التي تلاءم الحاجات الجديدة والمخترعات الجديدة لدى أهلها. فإذا لم يكن لدى أهلها حاجة إلى اختراعات جديدة أو استعمالات جديدة فان اللغة تبقى كما هي، وعلى هذا فعدم نمو اللغة – أية لغة – ليس لقصورٍ في طبيعتها أو ذاتها، وإنما لقصورِ وجمودِ أهلها.

تَمَيُّزُها عن بَقِيَّةِ اللُّغاتِ:

تميزت العربية عن بقية اللغات بميزات في ألفاظها وقواعدها وتراكيبها في الآتي:
((1)) أشار الباحثون إلى أنها أكثر اللغات اختصاصاً بالأصوات السامية؛ فقد اشتملت على الأصوات جميعها وزادت عليها اصواتاً كثيرة لا وجود لها في اللغات الأخرى، مثل أصوات (التاء والذال والظاء والغين والضاد).
((2)) تميزت بأنها أوسع اللغات وأدقها في قواعد النحو والصرف، وأنها تمتلك ثروة هائلة في أصول الكلمات والمفردات.
((3)) تتميز بخصائص ربما تنفرد بها ومنها (الإعراب والغنى بالمفردات والتراكيب والمفاهيم والإيجاز والشمول والدقة والموسيقية).
ومن الملاحظ أن ذلك يدل على احتفاظ اللغة العربية بمقومات اللسان السامي الأول دون منازع فضلاً عن النواحي الإعرابية والسمات الأسلوبية، بالإضافة إلى تفوقها في أصول المفردات والكلمات من حيث الوفرة.

وَظائِفُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ:

إن اللغة العربية بهذا التميز وبهذا الرصيد التاريخي والواقعي لم يكتب لها النجاح لولا الوظائف المتعددة التي تقوم بها هذه اللغة وأهمها:

((1)) أنها وسيلة الإنسان العربي في التفكير فنحن عندما نفكر نستخدم الألفاظ والجمل والتراكيب العربية في كلامنا وكتابتنا، وبمعنى آخر إن تفكيرنا حديث عربي صامت وحديثنا تفكير عربي صائب.

((2)) أنها تحمل مبادئ الإسلام السليمة بحكم أنها لغة القرآن الكريم.

((3)) أنها تعمل على تأصيل العقيدة الإسلامية؛ فهي تحمل إلى المتكلمين بها هدى القرآن وهدى رسول اللهﷺ في قوالب رصينة محكمة؛ فالعلاقة وثيقة جداً بين العربية والعقيدة الإسلامية.

((4)) أنها مُقَوِّمٌ من مقومات الأمة العربية الواحدة؛ فهي توثِّقُ شخصية الأمة، وتؤكِّدُ هويَّتها وتشكل أداة للاتصال بين أبناء هذه الأمة.

((5)) أن العربية لا تدرس ولا تعلم لذاتها بل هي وسيلة المتعلمين جميعهم لتعلم سائر المواد الأخرى.

((6)) أنها الوسيلة المثلى لحفظ التراث الثقافي العربي.

((7)) وأهم وظيفة يمكن أن تقوم به العربية وتؤديها خير تأدية هي الوظيفة الحضارية الإنسانية تلك الوظيفة التي مهدت لحضارة الإسلام أن تعم آفاق الدنيا؛ حيث جمعت الحضارة كل الأعراق والأجناس وبالتالي صارت مقوماً من مقومات الأمة الإسلامية التي هي أكثر شمولاً من الأمة العربية فضلاً عن كونها إنسانية لأنها تخاطب الإنسان في فكره ووجدانه وبالتالي فهي متصالحة مع هذا الإنسان مادام الإنسان يتقوى بها لغة وثقافة وسلوكاً وأدباً.

اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ: المَوقِعُ الإستراتِيجيُّ فِي التَّدافُعِ الحَضارِيِّ:

إن اللغة العربية باعتبارها وعاءً للثقافة العربية وللحضارة الإسلامية فإنها تواجه أخطاراً تتفاقم باطراد تأتي من هيمنة النظام العالمي الذي يرفض صياغة العالم الجديد وفق خصوصيات الشعوب وثقافاتها وأعرافها وتقاليدها.وإن موقع اللغة العربية في الصدارة من الهوية للدفاع عن الأمة، فما اللغة إلا وعاء الفكر الذي يصنع طرائق المواجهة، بالتكيف حيناً، وبالتصلب حيناً.

وبالرغم من وسائل التهجين والتدجين لهذه اللغة فإنها استعصت على التدجين والموت لأنها اللغة الوحيدة للوحي الإلهي الباقي على ظهر الأرض، وبقاؤها هو إكسير الحياة للأمة، والمجدد الدائب لطاقاتها الأدبية والمادية.

يقول العلامة الجزائري الشيخ محمد البشير الإبراهيمي مخاطباً الجزائريين الذين عمل الاستعمار الفرنسي بكل الوسائل على جعل اللغة غريبة في أفواههم سمجة على ألسنتهم منكورة في قلوبهم وأفئدتهم:

((لولم تكن اللغة العربية لغة مدنية وعمران، ولو لم تكن لغة متسعة الآفاق غنية بالمفردات والتراكيب لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان وآداب فارس والهند، ولألزمتهم الحاجة إلى تلك العلوم تعليم تلك اللغات، ولو فعلوا لأصبحوا عرباً بعقول فارسية وأدمغة يونانية، ولو وقع ذلك لتغيَّر مجرى التاريخ الإسلامي برُمته)).

لو لم تكن اللغة العربية لغة عالمية لما وسعت علوم العالم، وما العالم إذ ذاك إلا هذه الأمم التي نقل عنها المسلمون.

قامت اللغة العربية في أقل من نصف قرن بترجمة علوم هذه الأمم ونظمها الاجتماعية وآدابها فوعت الفلسفة بجميع فروعها، والرياضيات بجميع أصنافها، والطب والهندسة والآداب والاجتماع، وهذه هي العلوم التي تقوم عليها الحضارة العقلية في الأمم الغابرة و الحاضرة .

واللغة العربية هي التي أفاضت على علماء الإسلام بكنوزها ودقائقها وأسرارها، وأمدَّتهم بتلك الثروة الهائلة من المصطلحات العلمية والفنية التي تعجز أية لغة من لغات العالم عن إحضارها بدون استعانة واستعارة، فبحثوا في كل علم وبحثوا في كل فن وملؤوا الدنيا مؤلفات ودواوين.

ومن هنا ندرك أن الحديث لإصلاح وضع اللغة في المنظومة المعرفية للأمة ليس ترفاً فكرياً بقدر ما هو حديث عن بناء حضاري متكامل باعتبارها جزءاً جوهرياً في مشروع التجديد والإصلاح والتمهيد للنهضة المرجوة، ولا يمكن أن تحصل نهضة حقيقية بغير نهضة لغوية متزامنة مع المشروع كله، وخادمة له سواء من ذلك ما يتعلق بتأصيل الفهم والتلقي للخطاب اللغوي من الوحي خصوصاً، ومن التراث العلمي الإسلامي عموماً، أو ما تعلق بالبلاغ والتواصل التعبيري المرتبط بالمفاهيم المكونة لهوية الأمة على الإجمال.

واللغة العربية لم تكن يوماً نافلة في مجال التدافع الحضاري، وساحة الصراع الإيديولوجي إلا عند من لا يفقه سنن المغالبة بين الأمم والشعوب، بل كانت ولا تزال من أهم مواقع الصراع الفكري، ومن أخطر أسلحة الاحتواء الإستراتيجي لثقافات الشعوب وتمييعها لإخراجها عن طبيعتها وصبغتها.

ولا بد من أن ندرك أن تفعيل الثقافة رهن بتطور اللغة، ونمو اللغة يعكس القيم الثقافية للمجتمع الذي يتكلم بها، وهما مقياس لإمكانته وقدراته، وكيف نعرف هذه القيم عندما تختفي دلالات اللغة، وتغيض معانيها ومراميها وإشاراتها في حديث الناس وبرامج الإعلام وإعلانات الشركة وأسماء المحال ويافطات الإشهار.

اختراقُ الهُوِيَّةِ وَصَدمَةُ العَوْلَمَةِ:

التحدي الذي يواجه الهوية اللغوية في عصر الصدمة العولمية مَرَدُّهُ إلى الشعور المبالغ فيه بأهمية اللغة الأجنبية، الناتج غالباً عن الانبهار بكل ما هو أجنبي، والظن الزائف بأن التقدم لا يأتي إلا عن طريق إتقان اللغة الأجنبية للجميع، بل والتحدث بها بين العرب أنفسهم.

ويمكن أن نحصر مظاهر الصدمة العولمية في ميدان اللغة في العالم العربي في ثلاث مستويات:

المستوى الأول: هو المستوى الشعبي؛ حيث:

((1)) التداول بالإنجليزية في الحياة اليومية. ((2)) كتابة لافتات المحلات التجارية. ((3)) كتابة الإعلانات والإشهارات.
((4)) كتابة قوائم الطعام في المطاعم.

المستوى الثاني: المستوى التقني في عصر الرقمنة المتطورة؛ حيث إن مشكلة الإنسان العربي المعاصر تكمن في أنه لا يستطيع أن يستورد حلولاً للتغلب على كثير من التحديات: فلن يُترجِم له العالم الخارجي المعارفَ إلى العربية، ولن يقترح له برامجَ إصلاح لُغتِه، أو وسائلَ صنع المعارف بها.

التحدي الأول: لغةٌ بلا ذخيرة معرفيَّة: يعيش العالم العربي في كوكبٍ آخر بعيدٍ كليةً عن مشاريع بناء الذخائر الرقمية المعرفية التي أضحت مركز العلم والمعرفة في عالم اليوم في كل المجالات العلمية والتقنية، وفي معظم الحقول الثقافية والعمليَّة، تمتلك اللغات (عدا العربية) اليوم قاعدةً تحتيةً معرفيّةً رقميةً متعددةَ الوسائط دخلت صناعة المعارف فيها سباقاً يومياً.

التحدي الثاني: لغةٌ تعاني من سرطان الترجمة: كثير من عيون الكتب العالمية لم تر النور بعد بالعربية! معظم أمهات الكتب الحديثة التي تشكل نبراس الحضارة المعاصرة غير معروفة بالعربية التي كانت في العصر العباسي لغة الحضارة الكونية بفضل حملة الترجمة الواسعة إليها للكتب الأجنبية في شتى المجالات من فلسفة ومنطق وطب وفلك ورياضيات وأدب، من مختلف اللغات الإغريقية والسريانية والفارسية والسنسكريتية والحبشية... التي أغنتها بروافد فكرية وكلمات ومصطلحات كثيرة.

التحدي الثالث: لغةٌ لم تكمل بعد بناءها التحتي الرقمي؛ حيث لا يوجد حتى اليوم قارئٌ ضوئيٌّ آليٌّ لأحرف اللغة العربية يستحق أن يحمل هذا الاسم، رغم امتلاك اللغة الفارسية ذات الأحرف الشبيهة لذلك القارئ الضوئي!

يُشكِّلُ عدم تصميم برمجيةِ قارئٍ ضوئيٍّ عربيٍّ حتى الآن عائقاً كبيراً يمنع دخولها عصر الرقمنة.

وتفتقر العربية أيضاً إلى برمجيات كمبيوترية مناسبة لتصحيح نصوصها قبل وضعها على الإنترنت وللبحث عنها فيه. الموضوع خطيرٌ في الحقيقة لأن صفحات الإنترنت بالعربية (لاسيما منتديات الدردشة والحوارات، وصفحات الأخبار والتعليقات العامة على الأحداث اليومية والكتابات...) ملطَّخةٌ بأدغال وأعداد فلكية من الأخطاء اللغوية والإملائية التي لا تخطر ببال.

ويكفي معرفة أن عدد الكتب التي رقمنها مشروع غوغل في عام 2007 فقط، مليون كتاب، في حين أن ((مشروع الذخيرة العربية)) الذي تدعمه الجامعة العربية بميزانية خاصة منذ 1975، لم يُرقمن حتى الآن إلا 230 كتاباً.

المستوى الثالث: هو مستوى الخطاب الرسمي:

لأن الخطاب فيه من أقوى المؤثرات في وسائل الإعلام الحديثة، وربما في كل العصور وفي جميع البلدان؛ فالمسؤول مهما كانت صفته ومرتبته يؤثر على سامعيه ومشاهديه بنطقه وصوته وفصاحته إذا تفصح ولحنه إذا لحن.

نَحْوُ أَداءٍ أَفْضَلَ لِلُّغَةِ العَرَبِيَّةِ:

((1)) اللغة العربية تحتاج إلى مراجعة مستمرة تستهدف اكتشاف التحولات التي تطرأ على برامجها وأنظمتها المختلفة بهدف رصد استجاباتها، واتخاذ التدابير اللسانية الكفيلة بمواجهة المخاطر التي تجابهها.

((2)) وضع مشروع متكامل يضع في الاعتبار مطالبة الأجيال الحاضرة بالالتزام بالحد الأدنى من أساليب اللغة وجمالياتها، مع بذل الجهد المتواصل لملاحقة التطورات التقنية، وإيجاد خطط عملية ممكنة وقادرة على مواجهة المخاطر المحدقة لنثبت أن اللغة العربية.

((3)) ولوج عالم الفضائيات بثقل لغوي يصنع اللسان القويم، وينشئُ الإحساس بالعزة عند التحدث بالعربية، فقد باتت الفضائيات اليوم مكوناً أساساً من مكونات قوى التحول اللغوية التي تملك القدرة على فرض استجابات وتوجهات في عقول المشاهدين وسلوكهم ومواقفهم، كما أن لها دوراً تخريبياً يكمن في ما تفرضه على برامج المشاهدين اللغوية والفكرية من أنماط لغوية.

((4)) إبطال المغالطة التي ترى أن العربية عاجزة عن إبرام العقود والصفقات والإشهارات الترويجية؛ ذلك أن الانحياز الاقتصاد المطلق للإنجليزية بوصفها لغة تداولية وإقصاء العربية يتضمن تبعية شاملة تؤذن بخراب العمران اللغوي وتبشر بالتبعية والاغتراب.

((5)) دعوة وزارة التربية والتعليم في كل بلد عربي للعمل على تعميم فكرة إنشاء مدارس ابتدائية تعتمد فيها اللغة العربية لغة وحيدة للتواصل في هذه المدرسة دون أي استخدام للعامية طوال اليوم المدرسي، داخل الصف وخارجه.

((6)) إن ثمة ربطاً مطرداً بين تقدم اللسانيات الحاسوبية العربية ومنجزاتها وتقدم العربية وتهيئتها لمستقبل أفضل، وذلك أن تعريب الحاسوب وملحقاته ومعداته سيكفل توفير برامج عربية صالحة لبناء مجتمع المعرفة المنشود.

ويظهر أن هناك عوامل تجعل من هذا التعريب قضية مصيرية وتسهل تعميمه؛ منها:

((أ)) استخدام كثير من الشعوب للحرف العربي (باكستان، إيران...)).

((ب)) النشر الإلكتروني باللغة العربية.

((ج)) الإفادة مما تزخر به الشبكة العالمية من مواقع لتعليم اللغة الإنجليزية وتعلمها للناطقين بها وللأجانب، وتطوير مواقع مشابهة لخدمة اللغة العربية وتعليمها.

((د)) نشر العربية في الخارج وذلك بافتتاح المدارس العربية التي تعتني بتدريس العربية والثقافة الإسلامية، وشد الجاليات المسلمة إلى التراث العربي، وتقديم المنح للطلبة الراغبين في تعلم العربية ونشرها.

((ه)) اشتراط إتقان اللغة العربية للعمالة الوافدة إلى البلدان العربية وخاصة بلدان الخليج العربي التي أصبح الهندي فيها مثلا يغضب منك لأنك لا تفهم لغته الهندية.

((و)) اشتراط ترجمة كل ما يكتب على البضائع المستوردة إلى اللغة العربية، وعدُّ هذا المطلب شرطاً للتعامل التجاري مع الشركات والدول المصدرة.

ومما يجب على الطلبة أن يفعلوه ما يلي:

((1)) تنظيم أوقاتهم بما يسمح لهم بزيارة المكتبات والتزود بالمعرفة الضرورية لهم.
((2)) الابتعاد عن وسائل الإعلام الضارة والتي تؤدي آثارها إلى الإخلال بالمجتمع ككل.
((3)) المشاركة في الأنشطة التي تساعد على تنمية ثقافتهم الشخصية.
((4)) الاعتزاز باللغة العربية وعدم استخدام لغات أخرى في الحديث إلا للضرورة.

الأُسُسُ العِلمِيَّةُ لِبناءِ مَنْهَجِ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ:

((1)) يجب أن يراعي هذا المنهج التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة، مع الاهتمام ببيان مركز الإنسان في الكون ووظيفته في الحياة.

((2)) يجب أن يراعي في بنائه أيضاً طبيعة التلميذ في كل مرحلة، ومتطلبات نموه العقلي والنفسي والجسمي والاجتماعي، وكيف تسهم اللغة في عملية التنمية الشاملة المتكاملة لشخصية المتعلم وتكوين سمات الإنسان الصالح فيه.

((3)) يجب أن يراعى المنهج أيضاً منطق مادة اللغة العربية وخصائصها التي لا بد من أخذها في عملية التعلم، ووظائفها التي لابد من العمل على تحقيقها.

كَيفَ نُحافِظُ على اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ بَينَ الطُّلاَّبِ:

لا شك في أن اللغة العربية هي قلب الهوية القومية والوطنية وروح هذه الأمة.. والولاء لهذه اللغة يأتي من باب الانتماء لهذه الأرض وثقافتها وللغتها لغة القرآن الكريم فهي لغة حضارة ولسان مشترك يجمع بين أكثر من مليار مسلم في شتى أنحاء الكرة الأرضية.. ولغتنا اليوم تمر بمرحلة غاية في الخطورة بهدف تهميشها والتقليل منها رغم أنها لغة الإبداع والابتكار والتطور والاختراع.

وما يحدث اليوم للغة العربية هو نفس المخطط بل أخطر مما حدث في أيام الاستعمار خاصة بعد أن تحول التعليم في المدارس والجامعات إلى اللغة الإنجليزية.

إن توسيع مصادر تعلم اللغة العربية لتتجاوز الصف والكتاب المدرسي هو السبيل الوحيد لتطوير مهارات الطالب في الاستماع والحديث بالعربية المعاصرة، فضلاً عن أن الكتاب المدرسي يجب أن يتخطى الشكل الورقي البحت ويستفيد من إمكانيات ثقافة الصورة والحاسوب.

إن إعداد مقررات اللغة العربية لغير المتخصصين بها هو الوسيلة الحقيقية لإبقاء صلة الطالب الجامعي باللغة العربية وإكسابه المهارات الأساسية.
إن تعلم لغة أجنبية وإجادتها ضرورة في عصرنا ولكن هذا لا ينبغي أن يتم على حساب اللغة القومية.

الطَّلَبَةُ العَرَبُ وَدَورُهُم فِي الحِفاظِ على الثَّقافَةِ العَرَبِيَّةِ:
ومما يجب لهم من حقوق ما يلي:

((1)) التنشئة السليمة من الأهل منذ الصغر على حب وتعظيم الثقافة العربية.

((2)) توفير كافة الوسائل التعليمية والإرشادية لهم وإتاحتها دون.

((3)) وضع مناهج دراسية وطرق تعليمية تعطى للطلبة الفرصة للتزود بالمعرفة خارج نطاق المنهج الدراسي المقرر.

((4)) إضافة مناهج لتدريس اللغة العربية على كافة الكليات بما فيها الكليات العملية والتي تعتمد فيها الدراسة على لغات أخرى كالإنجليزية.

((5)) إقامة ندوات وورش عمل لتثقيف الطلبة وزيادة وعيهم بالثقافة العربية.

((6)) تشجيع إقامة الأنشطة التي تحفز الطلبة على صقل معارفهم ومهاراتهم اللغوية والثقافية.